

اللاهوت الإسلامى الحدود والجسور

کینیٹا.کراچ

obeikandi.com

«رب البصر والأمل» هي واحدة من أعظم كلمات العهد الجديد ويجب أن تكون أبعادها والتي هي أهم جزء في صلاتنا مسيطرة دائماً على أفكارنا وممارساتنا في التنصير. فنحن نقراً: «أما الحكمة النازلة من فوق فهي طاهرة قبل كل شيء وهي مسالمة متسامحة ويجب علينا أن نتمسك بهذا الترتيب وتكميله بالصدق والانفتاح الروحي».

ولدراسة ما قد تعنيه أو تتطلبه هذه الأمور سوف يكون جهدنا منصباً على مضامين اللاهوت أكثر منه على إمكانية التطبيق العملي في التنصير حيث سيجري الاهتمام بالجزء الأخير في مكان آخر أثناء هذا المؤتمر حيث يجب أن يركز بالضرورة على فهمنا لأوجه النزاع بين العقيدتين، لذلك قد يكون من الصواب والحكمة العودة إلى المراجع منذ البداية، إن مهمة التفكير في الجسور والعقبات التي تنتظر النصارى فيما يتعلق بعملهم بين المسلمين تقودنا مباشرة إلى القرآن وإلى موقفنا منه باعتباره القول الفصل في الحياة الإسلامية والدين الإسلامى، ويجب علينا أن ننوه منذ البداية أننا لا نطالب أنفسنا بحكم مجرد ومسبق عن مكانة القرآن النهائية، إذ أن القيام بذلك من شأنه استبعاد الوصول لأى حكم! وأنه من الصواب والحكمة أن نقوم بدراسة القرآن والبحث فيه دون الدخول فى قرارات نظرية بشأنه سواء كانت إسلامية أم غيرها، فنحن نكن له احتراماً موقراً فقط بسبب التزام المسلمين به، كما نحمل بصبر رغبة نصرانية للمضى قدماً بكل إخلاص لمعرفة ما يعنيه ذلك الالتزام بالنسبة للمسلمين لأن القرآن هو المصدر الحقيقى لجميع معتقداتهم.

وهذا ليس مجرد تذرّع بالحجج، كما أنه ليس مساومة فى مسألة كمال النصرانية فإذا أردنا من المسلمين أن يفهموا حقيقة جديدة أو أن يكتشفوا مضامين أوسع فى هذه الحقيقة، أليس من الأجدى أن نستخدم القرآن ذاته لمساعدتهم على إدراك ذلك؟ وفى الواقع (كما نأمل هذه الصفحات أن تثبت) فإن النصارى غالباً ما قللوا من قيمة كتاب المسلمين المقدس بالنسبة لما نسميه إمكانيات القرآن «النصرانية الكامنة». وهذا مرده بلا شك لتاريخ طويل من العداء والتنافر والانتهاكات المتبادلة الباطلة. وأنه من الحكمة أن نترفع عن ذلك دون أن يعيق هذا الاتجاه مواجهتنا

للمشاكل والمناقشات المتعلقة بنسب بعض الأمور المنصوص عليها فى بعض أجزاء القرآن أو الناجمة عن تخوفنا من المخاطر التى قد يوقعنا فيها الأمل .

إن احتمالات هذا النوع من الأمل غنية جداً ولها سابقة فى استقبال النصارى لرسالة العهد القديم، وما من نصرانى حصيف يمكن أن يفترض مثلاً أن النبرة الكثيية التى تسود سفر الجامعة أو النبرة القومية الصرفة فى بعض المزامير مثل المزموران ٦٨ و١٣٧ منسجمة مع الكتاب المقدس، وقد يقال إن هذه جميعاً جزء من الوحي الذى يبشر بكمال المسيح بينما القرآن، بما فيه من مصادر مختلفة تشكل أساس القلق النصرانى، قد جاء فى فترة لاحقة للمسيح، ولكن متى كانت الحقيقة مبنية أساساً على التاريخ؟ فالمكان والزمان عاملان مهمان جداً عندما نحاول أن نفهم أهمية القرآن، ففي القرن السابع للميلاد كانت الجزيرة العربية أشبه بسامرة القديس إيليا منها بأورشليم يسوع أو إسكندرية فيلو أو أفسس يوحنا، ومع ذلك فالمسألة النهائية بالنسبة لنا ليست فى كيفية تقسيم القرآن فى أرضه وإنما ماهية المفاتيح والحلول التى يمكن أن يقدمها لنا لزرع الثقة بالإنجيل فى العالم الإسلامى، وعلى افتراض أن نفهم معاييرها فإن «الحكمة النازلة من فوق» تقول بأن الحلول كثيرة وأنها يجب أن تستخدم بواسطة «الصبر والأمل» النصرانى .

وبالطبع يجب أن نبدأ بالإدراك القرآنى الإسلامى الشامل لكيونة الرب ووحدته وقدسيته ورحمته ومغفرته، وأفضل ما يعرف به الإسلام هو العبارة التى استخدمها لوثر بفعالية كبيرة حين قال: «دع الرب يكن رباً»، والإسلام له مفهومه الخاص لهذه العبارة ولكن الدعوة لنسب الأصنام وإنكارها والإقرار بسلطة الله وحده وحكمته وقوته ورحمته وعدم «اتخاذ إله غير الله» عن إيمان وثقة هى الركن الأساسى فى العقيدة الإسلامية، وربما كانت عبارة «فيا أبنائى، تجنبوا الأوثان!» هى آخر كلمات العهد الجديد، ولهذه الكلمات وقعها الخاص الذى يختلف عن وقع «لا إله إلا الله» التى تنطلق من المآذن، وعلى كل حال يوجد الكثير فى هذه الإرادة الفريدة لنسب عبادة آلهة عدة كما أنها تؤكد حقيقة الرب الأوحد، «والكثير» الموجود فى هذه العبارة الإسلامية يمكن أن نتأمله ونفكر فيه إذا أدركنا تغلغل الوثنية فى أذهان كثير من الناس بما فى ذلك المثقفين، إن تقديمنا الولاء المطلق لآى

رب مزيف أو عقيدة أو جنس أو فريق أو أمة أو تجارة أو مذهب هو وثنية أكثر سوءاً وشناعة من حجارة وتمائيل «البدائين»، وبالطبع فإن العقيدتين تختلفان اختلافاً شديداً بشأن الكيفية التي يمكننا بها التحرر من هذه الأوثان (انظر أسفله)، غير أن هنالك مفهوماً إيجابياً عميقاً في إصرار الإسلام على أن الله فقط هو الرب وعلى أن العبادة الصحيحة هي التي تقضى على العبادات الخاطئة.

وسوف يطرح السؤال طبعاً فيما إذا كان رب الإسلام ورب الكتاب المقدس هما رب واحد، وهنا لا يمكن الإجابة سلباً أو إيجاباً، بل بكليهما معاً، فالرب كموضوع في جميع اللغات هو بالضرورة واحد غير أن ما تعنيه أو ما تتضمنه اللغة المسندة بشأنه مختلف تمام الاختلاف، وطالما أن الغرض من الأوصاف المسندة هو تعريف المسند إليه فإن التباين في الإسناد يدخل في مفهوم المسند إليه، ومن الواضح أن هذا التباين يخص موضوعاً واحداً وإلا ما أدرك الناس أن هنالك تبايناً، وبالتالي لما كان هنالك سبب للإشارة إليه، وقد حمل القديس بولس لشعب المذبح في أثينا أنباء رب الكتاب المقدس، غير أنه ذكر بأنه نفس الرب الذي «يعبدونه بجهل»، فهو لا يطلب منهم إنكار مقاصد عبادتهم بل العثور عليها مضمنة في حقيقة الرب من خلال المسيح، والذي ينكره الرسول بولس هو مسند «مجهول» والذي قد يكون «لا مبالياً» أو «مهتمّاً بالبشر بشكل مشبوه» وقال الرسول بولس «فهذا الذي تعبدونه ولا تعرفونه هو الذي أبشركم به»، إن حركة التنصير إجمالاً مهتمة بقضية فهم الناس للأسس التي يقوم عليها اعتقاد النصارى بالرب، وفحوى هذا الاعتقاد مجمل في معنى ورسالة وجروح وصلب يسوع الذي هو المسيح المخلص، ومما لا طائل وراءه أن نستخدم هذه المضامين النصرانية الرائعة إن لم تكن عن حق متعلقة بالله رب المسلمين، والمسألة الملحة هي أن هذه المفاهيم النصرانية لم تفهم بعد على أنها ترتبط به، وهذا ما يجعل التنصير أمراً ملحاً. إذن فالرب موضوع جميع الأنظمة اللاهوتية هو رب واحد. أما بالنسبة للأوصاف المسندة إليه وفقاً لما تؤكد العقيدة وتعززه إليه العبادة فإن المسلمين والنصارى يردون على بعضهم بعضاً أحياناً بالإيجاب وأحياناً بالسلب، وبصفة عامة فإن جوانب الإيجاب في نظرة المسلمين إلى الصفات النصرانية المسندة إلى الرب هي

التي تشكل الجسور التي يمكن الوصول إليهم عبرها، أما الجوانب السلبية فإنها تشكل العقبات، وهذه الجوانب السلبية والإيجابية تتفرع بدورها في المسائل المتعلقة بالطبيعة البشرية والخطيئة والتاريخ والعالم.

دعونا نواصل الحديث عن الجسور، إن للقرآن والإنجيل أرضية مشتركة من الإيمان بالخلق: «هو (الله) الذى يقول كن فيكون»، إن الخلق المبدع هو الله والأرض الطيبة كذلك والتي ينظر إليها على إنها مسكن الإنسان ومجال نشاطه و«الأمانة» التي حملها، والإنسان هو «خليفة» الرب فى «حكم» النظام الطبيعى وهو فى ذلك مسير بإرادة إلهية، وتفهم الغاية الإلهية بالنسبة للعالم من خلال تسخير الإنسان الفلاح والزراع والتقنى والفنان والعالم الذى يمتلك ويستكشف ويستغل العالم بتفويض إلهى كما أنه يكون مسئولاً عن أعماله هذه أمام الرب، فالإنسان مخلوق أدنى من الرب وهو عبد للسلطة الإلهية، وخليفة ومندوب فى مواجهة الطبيعة.

من هذا المنطلق توجد جوانب عديدة من الفهم المشترك تساعدنا على القيام باتخاذ الموقف الصحيح فى وجه كل ما من شأنه أن يتعدى على الكرامة الإنسانية والمجد الإلهى، وليس فقط فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة كالسلطة، والبيئة، والمسؤولية عن الموارد والعدل الاجتماعى والتراحم بل بأكثر من هذا، والقرآن (سورة ٢: ٣٣ وما بعدها) يرى أن الشيطان هو رأس الاتهام، فبعد أن اعترض على خلافة الإنسان ثم تمرد على الرب لنفس السبب، فإن هدفه التاريخى هو إغواء البشر وتشتيت وإفساد العمل البشرى والثقافة حتى يستطيع أن يثبت للرب خطأ ما قام به بتكريمه للدور الإنسانى، ومن وجهة نظر الشيطان فإن العملية كلها مغامرة إلهية مضحكة، وهذه الموضوعات مثيرة جداً وإذا كان من الواجب «أن ندع الرب يكون رباً» يجب علينا كذلك «أن نجعل الإنسان يكون إنساناً». ومعنى ذلك أنه يجب أن نفهم أزمة مهمتنا وارتهاان الغاية الإلهية باستجابتنا، ومن هنا بالطبع كانت ضرورة الهدى كما يطلق عليه الإسلام والذى يسترشد به الإنسان فى أزمة مصيره عبر التاريخ، ومن هنا أيضاً جاء تعاقب الأنبياء المرسلين لتحذير وتوجيه الاستجابة البشرية، إذن فالنظرة القرآنية إلى الأنبياء فى التاريخ لا تختلف كثيراً عن مرامى أمثلة المسيح عن الكرم والكرامين والرسل، فخصوصية مهمة اليهود غير

واردة، ولكن مسئولية الإنسان أمام الرب فى تسخير الطبيعة عبر التاريخ حقيقة هامة فى المفهوم الإسلامى للخلق وفى مكانة النبوءة المتميزة فى التاريخ.

هنا تبرز بعض العقبات، ولكن قبل أن نتطرق إليها هنالك بعض السمات القرآنية الأخرى لمخلوقية الإنسان الأساسية والتى تساعدنا فى مهمتنا، فالطبيعة تحت وصاية الإنسان هى بالنسبة للقرآن دنيا من الآيات، وهذا اللفظ موجود فى كل صفحة من صفحات القرآن تقريباً، إن الآيات تشد الانتباه وهذا هو أساس العلم كله فالإنسان يلاحظ ويراقب ويصنف ثم يسخر الظواهر الطبيعية، والإسلام هنا يشعر بالفخر والاعتزاز فى تشجيعه السيادة الإنسانية من خلال اليقظة الماهرة والقيام بالجهد اللازم وبكل دقة، ونحن ننحنى لنتنصر، فالطبيعة لم تعط العلوم من خلال طرح بيانات معينة بل حقق ذلك الإنسان من خلال التساؤلات التى طرحها على الطبيعة «والتي» قامت بالرد عليها.

غير أن اليقظة التى تتطلبها هذه الآيات هى أكثر بكثير من كونها عقلانية وعلمية، فهى بالأحرى دينية وروحية، فالآيات تشير فى الإنسان اليقظ شعوراً بالشكر والعرفان، أما الإنسان اللامبالي أو الغليظ القلب فلا يلاحظها، إن إنجاب الزوجة للأولاد أو خصوبة الأرض هى بالنسبة للشخص اللامبالي والغليظ القلب مجرد أمر «عادى» ولكنها عند التقى أمر لا حدود لروعته ورهبته، إن هذا الشعور بالقدسية (وهذا التعبير غير مبالغ) فى القرآن يحمل احتمالاً كافياً عميقاً لعملنا على نشر دعوة المسيح، فإذا كان النظام الطبيعى هو العالم الذى تمارس فيه بصورة ملموسة الشرائع التى ننسبها للرب مثل الرحمة والخير والعناية ألا يمكن للتاريخ، أو حتى للشخصية، استيعاب آية تجسد المسيح الشاملة بكل شىء؟ من المؤكد أن الغموض الداخلى فى مسألة تجسيد الذات الإلهية ليس مغايراً للاعتقاد بأنه حيثما يظهر الله آياته يكون بإمكاننا ملاحظتها، إضافة إلى ذلك فإن «الشكر لله» هو الشعور الصحيح بالإدراك والعرفان، أو ليس الدين النصرانى هو أكثر العقائد تعبيراً عن العرفان لأن لديه الكثير مما يستوجب ذلك وخاصة فيما تمثله أبعاد المذود والصليب من تضحية إلهية ونكران ذات؟ أن تأكيد القرآن على العرفان واضح جداً ولعل إشارة القرآن إلى «إن أكثرهم لا يشكرون» هى أكبر عبارة مذكورة موجهة للبشرية.

والآن هل يمكننا توسيع حدود العرفان البشرى ليشمل روعة التخليص من الخطيئة والرحمة إضافة إلى الطبيعة ومخلوقية الإنسان؟ إن مفتاح ذلك هو على الأقل هنا، ومن الأهمية بمكان أن القرآن يستخدم كلمة شكر كتعبير مناقض لكلمة كفر، وكلمة كفر تعبير واسع يعنى كل من يكذب بالله، ونحن نستحق اللوم الشديد عندما نتصرف ببساطة كما لو أن الله غير موجود، إن أقصى الإلحاد هو ليس فى إنكار الله بل فى تجاهله، إن هذا الإهمال وهذه اللامبالاة هى الصفة الأساسية للكافر الذى ينكر الله، وفى المقابل فإن أفضل تعبير عن العرفان لا يكون بإعلان الإيمان بل بروح التقوى ابتغاء وجه الله كما يذكر القرآن فى تعبير مثير للمشاعر فى مكان آخر.

إن هذه التأملات لا تجيب بحال من الأحوال على كل ما علق بأذهاننا فى بداية هذا الحديث عندما ركزنا على «الاحتمالات» النصرانية الكامنة فى القرآن، وليس هنالك شك فى أن مهمتنا تستدعى الاعتراف بهذه المعطيات الإيجابية بشكل يماثل حكمة وبصيرة الرسول بولس فى معالجة مسألة المذبح فى أثينا أو حكمة ذلك الكاتب الذى ضمن مقدمته لإنجيل القديس يوحنا جوهر الحكمة العقلانية فى التراث الإغريقى. فنحن بالتأكيد لدينا مبرر أقوى مما كان لدى الرسول بولس أو لدى مؤلف مقدمة إنجيل القديس يوحنا، ولا نقول بهذا لأنه يحقق السلام والوفاق لأن هذا يعتبر موقفاً انتهازياً وإنما لأنه من الأمانة والإبداع والعدل أن نفعل ذلك وأن نبذل قصارى جهدنا لتفسير المعطيات على أسس إيجابية تتسم بالمتعة، ويجب أن تعنى هذه المهام بالتهيين أو المتشككين فى المجتمع النصرانى الذين يجب احترام ولائهم وتمحيصها، كما يجب أن تعنى بالترددين أو الذين يقاومون النصرانية بين المسلمين بسبب تشككهم فى إخلاصنا أو فى المعرفة النصرانية الماهرة بكتابهم.

إن النفور الموروث لا يزول بسهولة، وكثيراً ما يؤكد القرآن على أنه قدم بطريقة تسهل على الناس فهمه، فالقرآن ليس طليساً قصده به إخفاء الحقيقة من خلال التعبير والأخبار كما تدعى ذلك فئة من الأخبار ونحن لن نندم إذا درسنا وتبعنا جدية القرآن ومن ثم اكتشفنا الوجهة التى يقودنا إليها، وبتسخير كل ما لدينا من

صدق ودهاء من أجل المسيح علينا أن نتنبه إلى جدية القرآن، وهذا شيء كان من المفروض أن نقوم به منذ زمن طويل جداً.

ومع ذلك وكلما تعمقنا فى محاولتنا للوصول إلى المخزون النصرانى فى القرآن كلما زادت المشاكل، وقد يكون هذا الأمر لا مفر منه والحقيقة فإن الوعي الكامل لما نحن بصدده لهو واحد من أهم أسباب القيام بالعمل، وإذا كان لازماً علينا أن نستوثق من أننا لسنا فى وهم فيما نسعى إليه فإنه من الواجب علينا كذلك أن نتأكد من أننا لسنا تحت وهم تحاملنا على الإسلام أو تبلد أحساسينا، فكلما دققنا القرآن «بالحكمة الصافية والمسألة» وتوغلنا فيه بنفس الروح، كلما تمكنا من إدراك الحواجز والإحساس بها، وعلى الرغم من ذلك فسوف يكون لدينا المزيد من «الأمل والصبر» للتغلب على هذه الحواجز.

وهذه أمور بالطبع تتعلق بفهم الإنسان وفهم المسيح مخلصاً ورباً، وهما مفهومان يكملان بعضهما بعضاً، لقد رأينا كيف يشرع الإسلام فيما يخص الله والإنسان، وإضافة إلى ذلك يرى القرآن أن هذا التشريع يلائم الطاعة فى وجود شروط معينة تمثلها بصورة عامة الدولة الإسلامية التى أنيط بها النظام السياسى منذ الهجرة، ويأتى بعد ذلك غط الحياة اليومى (الصلوات اليومية الخمس، والصوم والحج والزكاة) ونظام التكافل الجماعى فى الأمة الإسلامية، وعلى ضوء هذا وبالإضافة إلى فحوى التقاليد التى تدعمها وتعززها فقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه يمكن أن يتحسن حتى يبلغ درجة الكمال، فالإسلام بصورة عامة (على الرغم من وجود استثناءات هامة) ينادى على الفور وبسهولة: «الخير الذى أرجو لم أتمكن منه والشر الذى لم أرده هو ما أفعل»، فالإسلام واثق بأن التشريع فى القرآن والرحمة فى المجتمع والسنة التى يمكن أن تحتذى والانضباط فى الأنماط الاجتماعية والرعاية التى يمكن أن يوفرها نظام الحكم الإسلامى ستكون كافية لتحقيق واجب الإنسان والدعوة الموجهة إليه لعبودية الله.

إن مهمتنا النصرانية هى تقديم تجربتنا التى لمسناها عن الحاجة الماسة للرحمة والغفران وللولادة من جديد، ولنا أن نتساءل: ألا يوجد هنالك خطر من الكبرياء والذى يؤدى بالتالى إلى تجريده من الخير فى عملية الالتزام بالشريعة؟ ألا يجرى

كثيراً خرق التشريع الأخلاقي أثناء الالتزام بالشعائر إما بسبب فتور هذا الالتزام أو بسبب عدم الجدارة الروحية؟ إن الخطيئة التى تقف بها أمام الرب أعمق من الشجاعة التى تبدو بها الجريمة فى أعين الناس، وهنالك الجانب السلبي فى الشريعة ذلك الجانب الذى يشجب الأحوال التى تنتهك فيها، إن حاجتنا للرحمة والغفران من وجهة النظر النصرانية لهى جلية واضحة، كما أن قدسية الرب التى يلتزم بها الإسلام بكل إخلاص تجعل الرحمة والغفران ممكنة بالنسبة لنا على أساس شروط منسجمة مع القدسية التى تعدينا على حدودها.

وفى هذا الجزء من اللاهوت النصرانى هنالك حاجة ملحة فى الجانب السلبي تدعو لتحرير الفكر الإسلامى من الإحساس الخاطئ الذى يثيره مصطلح «الخطيئة الأولى» فى نفوس المسلمين، إن هذا المصطلح يعنى بالنسبة للمسلمين أن هنالك من الشرور البشرية ما لا يكون بمقدرة رحمة الرب أن تشملها وعلى أن نظرة الكتاب المقدس النصرانى للخلق نظرة فاسدة، وعلى العكس فما وجود الخطيئة إلا لوجود العمل الطيب أى أن للخطيئة معنى فقط لأن العمل الطيب له معنى واضح فى الحياة، وكلمة «أولى» تعنى أن أنانية الإنسان تسيطر على شخصيته كلها ولا يمكن حصرها فى فساد الجسد أو الأفعال الخارجية التى تخالف الشرع الإلهي، فمن المؤكد أن خطايا الروح والتفاخر بالتقوى وضلال العقل هى من وجهة نظر يسوع أشد إثماً من مخالفات «جاسى الضرائب» القانونية ومن «آثام الجسد»، نحن بحاجة إلى الصبر والإخلاص لنفسر للمسلمين ونؤكد المعنى النصرانى لوضع الإنسان أمام الرب.

ولكن، وعلى الرغم من أن هذا الجانب من الدعوة النصرانية جانب أساسى فإن الكتاب المقدس يركز بشكل كبير على مسألة الرحمة والغفران الكافية لأن نولد من جديد من خلال المسيح المصلوب، وهنا فإن الكتاب المقدس الذى يدعو إلى أن عيسى هو المخلص يلزمه أن يواجه الحيرة الأساسية والكراهية الراسخة فى الإسلام لهذا المفهوم، ولكن حتى هنا وبسبب صعوبة المهام التى نواجهها هنالك بعض الأمور اللاهوتية العقيدية التى ينبغى توضيحها.

انطلاقاً من مقطع هام فى القرآن (٤: ١٥٧ وما يليها) ونتيجة لاعتبارات أخرى فى اللاهوت الإسلامى، فإن الإسلام يرى:

(أ) أن المسيح لم يصلب.

(ب) أن الصلب ما كان من الواجب أن يحدث.

(ج) أن الصلب لا حاجة له أن يحدث.

فالإسلام ينكر حدوث الواقعة تاريخياً ويرفض احتمال حدوثها على أساس أخلاقى كما يرفض الضرورة لها على أساس عقائدى.

أما من الناحية التاريخية فيوجد الاعتقاد السائد برفع المسيح إلى السماء وإبداله بشخص يشبهه اعتقد خطأ بأنه يسوع، ويجب أن نلاحظ هنا بأن هذا يبقينا مع يسوع والذى حاول بعض الرجال قتله، ومع يسوع الذى كان على استعداد للمعاناة، لأن عملية «الإنقاذ» التى «تخلصه» جاءت فى اللحظة الأخيرة فقط، وهى طبعاً ليست ذات قيمة لولا وجود خطر مهلك كان قد أضمر له، لذلك فإنه لا يزال بإمكاننا أن نرى فى نية صلب المسيح المبشر والمداوى قدراً من خطيئة العالم التى تمثل جانباً كبيراً فى الكتاب المقدس للمسيح المصلوب، ولكن التساؤلات المتعلقة بما إذا كان المسيح قد عانى حقاً، وإذا كان الرب «يصالح العالم مع ذاته» من خلال معاناة المسيح، لا يمكن مواجهتها إلا من خلال اعتقادين آخرين يتعلقان بإنكار الإسلام لصلب المسيح، فالمسلمون يعتقدون أن يسوع ما كان ينبغى أن يتعذب بهذا المعنى الذى يتضمن عجز الرب أو إهماله فى الدفاع عن خادمه (بل وأكثر من هذا إن قلنا ابنه!). ومن هذا المنطلق فإن الرب «يودع قدرته» فى حقيقة أن المسيح لم يمت، علاوة على ذلك فإن تحمل عقاب الإثم نيابة عن الآخرين ليس من الأخلاق فى شيء.

فالقرآن يقول: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام ١٦٤]. إذ ليس من العدل معاقبة (أ) لذنوب ارتكبه (ب)، ولهذا فالمسلمون يشعرون بأن فكرة البديل النصرانية هى فكرة غير أخلاقية إلى حد بعيد.

ولكن هل فهم المسلمون المعنى الذى يرمى إليه الكتاب المقدس؟ فمفهوم معاناة بعضنا عن بعض لا يكمن فى تحمل الإثم ولكن يكمن فى تحمل الشر، وفى حكاية

خطيئة الابن الضال المسرف نلاحظ أن الإثم وعار الدهر كله الذى حاق كان بالابن بسبب خطيئة كانت من نصيب الابن وليس الأب، ولكن مأساة الأب تتمثل فى الحب الدائم والقلب الموجد والعاطفة المتجددة، وما بدا للابن حماقة وخطيئة متعمدة كانت للأب مأساة وحزنًا، وإذا سادت العلاقات الوجدانية فإن الابن يتمكن من العودة ويعود إلى أبيه (قارن ذلك بموقف الابن الأكبر)، هذا هو تحمل الخطيئة، والصليب هو مقياس ذلك فى قلب الرب لأن الصليب يمثل بطريقة مشابهة الصيغة التى يرفض بها الأب العدوانية والعناد، وفى الحقيقة ليس هنالك شئ «غير أخلاقى» فيما يختص بمغفرة المحبة كما نتعلمها من يسوع عندما عفا عن قاتليه لحظة موته.

ولكن هل هذه المعاناة التى تفتدى الإنسان ضرورية للمقدرة الكلية الإلهية، فالإسلام يقول إن رحمة الله تسع جميع مخلوقاته والقرآن يؤكد: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا يعنى أن المغفرة الإلهية عمل مهيب يحدث دون جهد، ولهذا فإن فكرة «المخلص» الذى «مكن» الرب من أن يغفر لنا توحى بالعجز الربانى، فهل يحتاج الرب أبدًا «للمساعدة» من أجل تحقيق إرادته؟ وهذا يوضح أننا نحتاج لأن نكون فطنين وحذرين جدًا فيما نقوله أثناء الدعوة خشية الوقوع فى مفاهيم خاطئة، ما هى الطريقة التى يمكن أن نوضح بها «ضرورة» الصليب باعتباره شكل ومضمون القدرة الربانية فى المغفرة؟ هل يمكن لمغفرتنا -إذا جاز التعبير- أن تكون مشكلة للرب؟.

ومن الطبيعى أنه إذا كان الغفران بلا مجهود فهو بالتالى غير ضرورى، إذ ليست هنالك إساءة حقيقية أو شر حقيقى بين الإنسان والرب، علاوة على ذلك فإن المغفرة هى إحدى تلك الأشياء التى لا يمكن الحصول عليها حتى تطلب ولا أن تمنح إلا إذا كانت ستقبل، إن الغفران لنا هو ليس مجرد تلويح باليد أو رفع الإصبع وإنما إحياء المودة والإلفة، إن ضرورة الصليب للمغفرة الربانية المناسبة التى تنسجم مع ظروفنا البشرية ومع رحمة الرب هى نفس النمط لمفهوم المقدرة الإلهية التى يتمسك بها الإسلام. «إن المسيح المصلوب هو قوة الرب» ومحبة المسيح فى موته وقيامه هو رمز للمقدرة الإلهية، ففى الصليب تكمن «إحدى الأسرار المقدسة والعظيمة لتلك القوة التى تم بواسطتها فى النهاية تخليص الشر

كله»، ونحن مدعوون لأن نخلص أفكار الناس النبيلة وليس شرورهم فقط، وفي سبيل تحقيق مهمتنا هذه يجب أن نجعل من العقوبات التى تواجهنا منطلقاً لنا.

هنالك الكثير الذى يمكن أن يقال ولكن الأبحاث لها حدود تقف عندها غير أنه مهما كانت درجة «نجاح» جهودنا فى الاتصال فإننا قد نتمكن على الأقل من تجديد قلوبنا فى الاعتقاد بأن الكنيسة المخلصة سوف تكون دائماً وسيلة الحاضر والخلاص المناسب فى عالم الحقائق «وما تبقى فبيد الرب».

خلاصة تعقيبات المشاركين

لقد أثار البحث الذى قدمه دكتور كراج الإعجاب والتقدير وذلك لأسلوب ذلك الرجل وإلمامه العميق بالإسلام، كما ضاعف البحث من إعجاب المعجبين بدكتور كراج وقد عبر أحدهم عن ذلك قائلاً: «إن دكتور كراج قد صور المسائل اللاهوتية على لوحة بارزة عريضة بحيث يمكننا مشاهدة مضمون الخلافات بدلاً من مجرد رؤية النقاط المحدودة».

وشعر القراء أن دكتور كراج كان واقعياً فى تثبيت الجسور والعقبات ولكنه كان لديه استعداد إيجابى لتسليط مزيد من الضوء على الجسور، إضافة إلى ذلك فقد اعتبرت حججه على أنها ليست مجرد وسيلة بل تنبع من تقدير أصيل للإسلام والمسلمين، وقد أشار أحد التعقيبات إلى أن هذا هو سر العمل التنصيرى الذى نأمل تحقيقه، وأضاف القارئ محذراً ومستفسراً عن بعض عبارات دكتور كراج: «يجب أن لا نكون فى وهم من صعوبة المهمة، كما يجب أيضاً أن لا نتحرك تحت تأثير أوهام خاطئة يولدها تحاملنا وتبذل أحاسيسنا، وانتقد عدد قليل من المشاركين بصورة ودية أسلوب المؤلف الرفيع قائلين:

- «إن غزارة علم دكتور كراج عالية لدرجة أنه لا يستطيع أحياناً توصيل ما يريد إلينا».

- «بسبب إلمامه الكامل بالموضوع، فإن دكتور كراج لا يستخدم أية ملاحظات هامشية، ويتواضع المعتاد لا يستخدم أى ثبت للمراجع».

وكان هنالك عدد من المشاركين الذين لم يكونوا على اتفاق كامل مع المؤلف.

ويقول أحدهم: «على الرغم من أن كراج كان حاضراً في مشاورات ويلوبانك فإن بحثه يتسمى كاملاً إلى مرحلة ما قبل ويلوبانك. واعتقادي هو أن هذه ليست فقط خطوة زمنية للوراء وإنما هي في الأسلوب أيضاً».

وعارض البعض استخدام القرآن في عملية التنصير كما يطلب دكتور كراج إذ يشعرون بأن استخدام مقاطع من كل من الإنجيل والقرآن يعطى في الحقيقة صلاحية متساوية لكليهما، ويقول أحدهم: «إن استخدام الجسور الإسلامية ربما ينحرف تماماً بالموضوع ويثير قضية الوحي».

وقد عارض قارئ آخر رأى دكتور كراج القائل بأن الانفتاح على الحقيقة القرآنية لا يعنى المساومة بكمال النصرانية، ويعتقد هذا القارئ أن الانفتاح على الحقيقة القرآنية من الناحية المبدئية والعلمية هو مساومة بكمال النصرانية لأننا نؤمن بأن الكتاب المقدس هو وحده مصدر الحقيقة.

وأشار آخرون إلى أن خبرة دكتور كراج في الدراسات القرآنية تفوق خبرة معظم المسلمين، كما أشار هؤلاء إلى أنه في مثل هذه الحالة سرعان ما يدخل الدارسون في مصاعب نتيجة للتناقض بين اعتقاد المسلمين الذي يرجعونه للقرآن وبين المعانى الحقيقية فى القرآن، وكتب آخرون يؤكدون هذا التحفظ لشعورهم بأن دراسة دكتور كراج تخاطب فقط «الصفوة» المثقفة المحدودة من المسلمين ولهذا «لن نستطيع أن ننجز إلا القليل باتباعها» فى المناطق التى يكون فيها فهم غالبية المسلمين للقرآن محدوداً.

وعموماً كان رد الفعل تجاه دراسة دكتور كراج إيجابياً للغاية وكان النقد بناءً جداً، وقد أدى العديد من آرائه لمزيد من النقاش المكثف بين المشاركين المتحمسين، فأثنى أحدهم مثلاً بصورة خاصة على عبارة الكاتب من أن «جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادى كانت أشبه بسامرة إيليا منه بأورشليم يسوع...». وانطلاقاً من هذا أضاف القارئ: «لقد بقينا لفترة طويلة نفترض بأن كافة الناس الذين عاشوا ويعيشون فى فترة ما بعد الميلاد من المفروض أن تكون لديهم نفس المعرفة التى

لدينا عند الرب... يجب علينا أن نتعلم أن نعلم الناس الذين يعيشون طبقاً لما لديهم من معرفة بإيجابية أكثر حتى لو كانت معرفتهم مخالفة لمعرفتنا.

رد الكاتب على تعقيبات المشاركين

إنه لمن دواعي العرفان أن يجد المرء هذا العدد من المؤيدين للاعتقاد بأن النصراني يجب أن يكون يقطاً ومفتحاً في تعامله مع القرآن (كقالب للفكر الإسلامي)، وأن يكون قادراً في نفس الوقت على إدراك التبعة التي تلقيها هذه المعرفة على التزامه النصراني بأن «الرب في شخص المسيح قد صالح العالم مع ذاته» كما أن المرء لا يستطيع إلا أن يبدى تقريره للدوافع الفطرية والتحفظات التي أبدت وتفهمة للأنماط الفكرية التي يجب التغلب عليها.

وأود أن أؤكد أنه لم تدر بخلدى أى تنازلات أو «مساومات» بشأن الوحي النصراني (ناهيك عن أية «مساومة» على غرار «خذ وأعط»)، ولذلك فإن أية تحفظات بشأن هذه الأمور لا مبرر لها وتعتبر غير ضرورية، ولكنني كنت أدعو إلى موقف من الوحي يهتم بالمضمون الذي يشكل أساس مكانة الوحي وليس العكس، فالوحي هو ذلك الذي يعبر عن الحقيقة وبالتالي يسيطر على من يقرؤه (ومن يؤمن به). إن كلمة «إنجيلي» ليست صفة تشابه بطاقة خاصة بزجاجة معينة وبالتالي لا يجوز وضعها على زجاجة أخرى، فالكلمة تعبر عن مخزون متناسق من المعايير المتعلقة بمفاهيم الرب والإنسان والطبيعة والشرعية والمغفرة والخطيئة ويرشدنا في تقييمنا للمصادر الأخرى، والإنجيل قد يعزز أو ينكر الاعتقاد في بعض هذه المصادر يؤكد لها أو يرفضها، وفي كلا الحالتين فإن الولاء الذي نحن عليه بالصدق في المسيح (إنجيلاً كان أو خلافة) يجب أن يكون خلافاً وذكياً وجسوراً وليس جبناً أو متبلداً أو هيباً، ومع ولاء كهذا يلزمنا أن نتخذ القرار بالقبول أو بالرفض وإلا لن نتمكن من تحقيق أى منهما بصورة صحيحة، ويقتنى أن هذا هو جوهر القضية مع القرآن أما بقية التعقيبات فيمكن حصرها في ثلاثة جوانب رئيسية:

١- ليست هنالك أية إشارة في البحث «لإسلام شعبي»، وقد كان هذا (لعدد من القراء) مجالاً أكثر أهمية، إنني أوافق ولكن مهمتنا كانت «لاهوية» وكنا نهدف إلى التعامل مع اللاهوت بدلاً من «الخرافة»، ولكن البعض قد يزعم أن

هنالك العديد من المفاتيح المشتركة في كليهما، إن الرغبة الغريزية لمحاولة «سبر غور الأشياء وتبينها من الداخل» تنطبق على هذه الحالة، فالاعتقادات في البركة «والعين المحسودة، والرقى... إلخ كلها تهيئ فرصاً للداعية النشط لأن هذه الاعتقادات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الخوف والموت والمجهول في الحياة البشرية، وهذا يؤكد لنا أنه لا يجب علينا أن نفترض وجود معرفة لاهوتية لا وجود لها أصلاً لدى بعض الناس، ولكن دعونا ألا نسيئ فهم الاستعداد البشري الذي يتشوق لمعرفة الحقيقة ويبحث عنها.

٢- لقد أشار البعض إلى أن البحث قد افترض بصفة عامة مستوى رفيعاً من المعرفة لا وجود له بين المسلمين في عالم اليوم، وتساءل هؤلاء: هل المطلوب منا تفقيه المسلمين بمعطيات تراثهم وعقيدتهم؟ وما هو الخطأ في إهمال القرآن؟ وإجابتي على ذلك هي أنه في الوقت الذي يوجد فيه تمييز واضح بين كلمتي «مسلم» و «إسلامي» بحيث إنه يكون من حماقة تجاهله، نجد أن الاعتقاد العام «ينبع من الحقيقة المطلقة» وأنه لمن الحكمة ألا نغالى في الفائدة التي يجنيها الناس من مصادرهم، ولكن يجب ألا نقلل من شأن هذه المصادر، ولأسباب عديدة لا يتسع المجال هنا لبحثها، نكتفى بالقول إن النقطة الأخيرة ضرورية للغاية في هذه المرحلة.

٣- لقد أشار البعض إلى أن البحث قد أخفق لأنه لم يأخذ في الاعتبار العلوم الحديثة مثل علم الاجتماع وعلم اللغة وعلم الأجناس البشرية وبقي في عوالم اللاهوت «المجردة» مثله مثل هنرى مارتن، وقد وصف أحد المعقبين (في تحليله الذى يستحق رداً أشمل سأقوم به مستقبلاً) البحث بأنه ينتمى كلية إلى «مرحلة ما قبل مشاورات ويلويانك». ولكن الحقيقة أن وجهة النظر التي توحى بها هذه العلوم الأخرى هي التي توجب علينا التشكك في وجهات النظر اللاهوتية، وإدراك الأمور المعقدة إدراكاً حقيقياً وتنبيه معاصرنا لموطن الخطر بصبر وروية علاوة على ذلك فإن تلك العلوم لا تطالبنا بوضع حد لكل صلة لاهوتية لأن جوهر الكتاب المقدس في القرينة هو أن «المعنى المنسوب لشيء ما» و «المعنى الموجود فيه الحقيقة» يجب أن يكونا مرتبطين، إن فهم عقيدة بكاملها يقتضى عالماً بكامله.